بولس في عمق ذاته

الأخت كليمنص الحلو
باحثة في الكتاب المقدّس

«مجنون أنت يا بولس» (أع ٢٦: ٢٤). هذه الصرخة أطلقها الحاكم الرومانيّ بوركيوس فستوس عندما سمع دفاع بولس عن نفسه أمام الملك اغريبا الثاني في محكمة قيصريّة وهو يشهد لتجلّي الربّ له على طريق دمشق وارتداده الكلّيّ للمسيح. ولم يكن يعلم فستوس أنّه أصاب الجوهر في حياة بولس. لإنّ بولس كان مجنونًا بذاته وبمكتسباته الإنسانيّة والثقافيّة والدينيّة ويعتبرها ملكًا له ومدعاةً للافتخار بل هي ربحٌ وغنيمة. باسمها اضطهد المسيحيّين. ولما التقى الإله الحيّ الآتي إليه، تحوّل هذا الوله إلى «جنون» بالمسيح وبكنيسته ورسالته. لقد وُلد بولس بالمسيح ولادةً جديدة. فكيف لنا أن نسبر أغوار هذا السرّ الذي لم يستوعبه بولس ذاته، لم يختبر عمق ذاته إلاّ ساعة العطاء الكامل في مواجهة الاستشهاد. «مجنون أنت يا بولس». فعلى ما كان ينصبّ اهتمامك قبل خبرة المسيح على طريق دمشق؟ وكيف تغيّر برمشة عين سلّم قيمك بعد رؤيتك الربّ؟ فأصبح في حياتك قبل وبعد. وأنت ذاتك أقررت بهذا الجنون: «نحن مجانين من أجل المسيح» (١ كو ٤: ٩–١٣)

فمن هو بولس بالنسبة لنا اليوم؟ وكيف تحوّلت مكتسباته إلى طريق للربّ؟ ماذا نعرف عنه تاريخيًّا وروحيًّا؟ ما هو سرّ ارتداده بعد خبرة دمشق وسرّ غيرته الرسوليّة؟ وكيف أصبح متجلّيًا بعد أن تجلّى له الربّ؟

١) ماذا نعرف عن بولس؟

نعرف عن بولس الكثير **تاريخيًّا** من أعمال الرسل ومن بعض ما ألمح إليه هو

ذاته في رسائله. وهذه المعرفة ليست سوى مدخل لعمق الذات الروحانيّ. إنّ مكتسبات بولس هيأت قلبه للإنفتاح إلى النعمة. وأهّم هذه المكتسبات شغفه بالمطلق ممّا جهزّ الطريق لمرور الربّ وإختباره له. بولس يحمل تاريخ شعبه في الكتاب المقدّس وهو مواطن العالم: يهوديّ ورومانيّ ويونانيّ وهو رجل ثقافة واسعة.

في انتماءاته يختصر بولس العولمة ويستبق حوار الحضارات القائمة.

ومما هزّه في العمق هو **أحداث حياته**. إنّه المتزمّت يصارع الهامشيّين. ولكن الغلبة كانت للضحيّة. إنّه يحضر رجم أسطفانوس ويوافق عليه (أع ٧: ٢٨؛ ٢٢: ٢٠) كان اسطفانوس مرتدًّا إلى المسيحيّة، هلّينيًّا من الشتات مثله. الهلّينيّيون يتصرّفون مثل يسوع: الرحمة وملكوت الله أهمّ من الشريعة، والجماعة المؤمنة هي الهيكل الجديد (يو ٢: ١٣–٢٠) وكان الهلّينيّيون قد هربوا إلى سوريا، وراء حرمون. انفعالان مضادّان اعتملا في قلب بولس: الإنفعال الأوّل أثار غضبه وهو تحدّي اسطفانوس للديانة اليهوديّة وللهيكل، والتبشير بقرب نهايتهما. أمّا الانفعال الثاني فهو الصدمة النفسيّة التي أصابته عندما رأى اسطفانوس في المحاكمة «وكان وجهه وجه ملاك» (أع ٦: ١٥) وعلى الأخص عندما سمعه يقول وهم يرجمونه: «أرى السماء مفتوحة وابن الإنسان واقفًا عن يمين الله. ثم أخذ يصلّي «أيها الربّ يسوع تقبّل روحي». وسجد وصاح بأعلى صوّته: «يا ربّ لا تحسب عليهم هذه الخطيئة! « قال هذا ومات. موت اسطفانوس كان مراجعة لموت المسيح الذي لم يشترك فيه بولس عن كثب بل قد أساء فهمه.

أمّا اهتداء بولس فقد رواه لوقا عشرون سنة بعد وفاته في أعمال الرسل. إرتداد بولس على طريق دمشق ولقاؤه بيسوع تُذكر ثلاث مرّات نظرًا لأهمّيّتها ليس فقط بالنسبة لبولس بل للكنيسة جمعاء.

مختصر الحدث يعطيه لوقا (أع ٩: ٣–١٣) ثم يصفه بولس وهو يدافع

عن نفسه أمام الشعب اليهوديّ في أورشليم (٢٢: ٦-١٦) ثم أمام الملك هيرودس أغريباس الثاني (٢٦: ٩-١٣).

شاول هو العدوّ المهتدي. يوقفه المسيح على طريق دمشق حوالي سنة ٣٦. يغمره بنور ويستجوبه صوت: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟» هذا التساؤل يسحق شاول سحقًا فيرتمي أرضًا ساجدًا. يعمى حتّى أنّ رفاقه ويضطروّن لاقتياده بيده. وقوع بولس ساجدًا هو وقوع إيمانيّ عن معتقداته السالفة. إنّه يضع مسافة بين هذه المعتقدات واعتبارها ملكيّة له.

إنّ خبرة دمشق تكتمل بثلاثة فصول: تجلّي الربّ له كما تجلّى لتلاميذه في خبرة القيامة (١ كو ١٥: ٥-٨). هذا ما فهمه من هذه الرؤيا: «أولست رسولاً؟ أما رأيت يسوع ربّنا؟ (١ كو ٩: ١). ثم بقبوله مخطّط الربّ عليه ولجوئه إلى حنّانيا كي يشفيه من عماه ويعتمد على يده. هذا التجلّي ليس كافيًا بل يلزمه خبرة التخلّي والاعتكاف إلى الصلاة في «بلاد العرب» ثم عودته إلى طرسوس مدّة لا تقلّ عن الأحدى عشرة سنة. هذه المدّة كانت بمثابة ابتداء طويل يهيئه ويكثّف قواه المتفجرّة فيسكبها فيما بعد نورًا على العالم.

تاريخيًّا شاول هو العدوّ المهتديّ. صارع الربّ فأوقفه صريعًا. اضطهد الجماعة المسيحيّة فتحوّل إلى رسول في الكنيسة، ولكن ماذا يقول هو عن ذاته؟

٢) ما هو سرّ ارتداد شاول بعد خبرة دمشق وتحوّله إلى بولس؟ لندع بولس يعرّفنا إلى «الجنون» الذي توصّل إليه؟

أ- بولس يعتبر ارتداده **دعوة نبويّة** أخذ فيها الله المبادرة فحوَّلته من العنف إلى الرحمة: «كنت أضطهد كنيسة الله بلا رحمة وأحاول تدميرها. ولكنّ الله اختارني وأنا في بطن أمي فدعاني إلى خدمته. وشاء أن يعلن إبنه فيّ لأبشّر به بين الأمم» (غل ١: ١٥-١٦). «اختارني»، «دعاني»، «ليعلن ابنه»،

«لأبشّر»: أربعة أفعال تختصر مبادرة الله واختياره لبولس بنعمة مجّانيّة. وكلمة «لكنّ» مثل النقطة على السطر تؤكّد هذا التحوّل الذي هو عمل النعمة: «بنعمة الله أنا ما أنا عليه الآن» (١ كو ١٥: ١٠) **وجواب بولس** على هذه النعمة يختصره الفصل ٣ من الرسالة إلى أهل فيلبّي. يعود بولس إلى الافتخار بحسبه ونسبه ولكن عن طريق التذكير ليعطي قيمة أقوى لمدى ارتداده الإيمانيّ. وهنا أيضًا «لكن» الاعتراضيّة: «ولكن ما كان لي من ربحٍ حسبته خسارة من أجل المسيح. بل أحسب كلّ شيء خسارة من أجل الربحِ الأعظم وهو معرفة المسيح يسوع ربّيّ. من أجله خسرت كلّ شيء وحسبت كلّ شيء نفاية لأربح المسيح وأكون فيه» (فل ٣: ٧–٩) هذا الارتداد ليس رجوعًا إلى الوراء بمعنى «تاب»، مع أنّ ماضي بولس كان مثاليًّا في اليهوديّة ويقرب من «البرّ»، ولا هو ارتداد أخلاقيّ أدبيّ فحسب، ولا هو نتيجة مجهودٍ إراديّ جعله يتغيّر، ولا هو انتقال من معسكر إلى أخر. بل هو «رجوع» ، تكويعة، تحوّل كلّيّ على ما قال مرقس: «توبوا وآمنوا بالإنجيل» (١: ١٥). هذا الرجوع يسمّيه يوحنّا الإتيان إلى يسوع أي الارتباط به ومرافقته.

هذا الارتداد هو لقاء شخصيّ بالمسيح. فإنّ بولس في جوابه على الدعوة يردّد ثلاث مرّات اسم يسوع وهي المرّة الوحيدة الذي يستعمل فيها كلمة «ربّي» وكأنّه أصبح خاصّته.

إنّ الحدث الذي اختبره بولس في لقاء المسيح القائم من الموت هو أوسع وأعمق من الارتداد والتوبة، لأنّ المسيرة نحو الله سرّ من الآسرار. إنّها سرّ العلاقة الشخصيّة مع يسوع والصيرورة إليه. وبولس يعتبر ذاته أنّه لا يزال على طريق الارتداد: «لا أعني أني قد أصبت الهدف أو بلغت إلى الكمال، إنمّا أواصل السعي لعلي أدرك المسيح يسوع لأنّه هو أدركني» (فل ٣: ١٢).

ب– وارتداد بولس بالنسبة إليه هو **خلق جديد**. شبيه بخلق العالم، به وُلد مع المسيح كشخص. والله الذي قال: «ليشرق من الظلمة النور» هو الذي أضاء نوره في قلوبنا لتشرق معرفة مجد الله، ذلك المجد الذي على وجه يسوع

المسيح» (٢ كو ٤: ٦) وأفضل وصف لهذا التحوّل ما قاله عن المعموديّة: «إنّنا حين تعمّدنا لنتحدّ بالمسيح يسوع تعمّدنا لنموت معه»، و«ندفن معه» لكي نقوم معه و«نسلك نحن أيضًا في حياة جديدة» (رو ٦: ٤–٧). لقد عاش بولس من جديد سرّ المسيح الفصحيّ وبه تغيرّت ذهنيته. وإنّنا نكتشف تشابها يلفت النظر، حتّى الخارجيّ منه، بينه وبين المسيح وقد انجبلت أفكاره بأفكاره. نلحظ أنّ يسوع بقي في القبر ثلاثة أيّام، وشاول بقي ثلاثة أيّام في ظلمة العمى الذي يواجهنا بظلماتنا. وعاش في هذه الأثناء كأنّه ميت لا يأكل ولا يقوى حتّى على التجوّل والوقوف. ولم ترجع إليه الحياة والرؤية إلاّ بعد أن اعتمد. وكذلك فإنّ اضطهادات بولس تشبه اضطهاد المسيح ومحاكمته وآلامه. واستشهاده نسخة عن استشهاده.

ج– ارتداد بولس هو **ارتداد حبّيّ**. فقد انتقل من «حياتي هي الشريعة» إلى «حياتي هي المسيح». هذه المحبّة تبلغ ذروتها في **نشيد المحبّة** (١ كو ١٣) وفي رسالته إلى أهل روما (٨: ٣٨–٣٩) إذ يردّد: «إني لواثق بأنّه لا موت ولا حياة، لا ملائكة ولا رئاسات، لا حاضر ولا مستقبل ولا قوّات، لا علوّ ولا عمق ولا خليقة أخرى أية كانت تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله التي بالمسيح يسوع ربّنا». إنّه كالتاجر الذي وجد كنزًا ثمينًا في حقلٍ فباع كلّ ما له واشترى ذلك الحقل لاقتناء هذا الكنز.

لقد قام بولس بنقلة نوعيّة: «لست أنا الحيّ بل المسيح هو حيّ فيّ» (غل ٢: ٢٠). واختبر أنّ الشخص محبوبٌ من الله كما هو، دون قيدٍ أو شرط بينما الشريعة تصنّف الناس حسب أمانتهم لها فتصبح هويّتهم منغلقة على ذاتها. بينما الهويّة المنفتحة هي الجواب على محبّة الله الغامرة ورحمته ونعمته واعتبار الناس جميعًا أخوة باسمه. لقاء بولس الحبّي بالمسيح حوّله جذريًّا دون أن يعرف كيف. أصبح عبدًا ليسوع (رو ١: ١) والمسيح بالنسبة له «ربًّا» (فل ٣: ٨). واكتشف أنّ الجماعة المؤمنة، الكنيسة، هي جسد المسيح. «لماذا تضطهدني؟» تضطهدني أنا بشخص المسيحيّين. هذه الخبرة سبقت

تمثيل جسد المسيح «بالكرمة والأغصان» عند يوحنّا. سرّ اندماج المسيح مع المسيحيّين ومع كلّ تلميذ هو محور ارتداد بولس الحبّي.

د – هذا الارتداد هو **تغيير في سلّم القيم**: إنّه الخليقة الجديدة بالمسيح.

إنّ قِيَم بولس ترتكز على حدث الصليب ولاهوته، منذ أن اختبر لقاء المصلوب القائم الذي كان «يعتبر ملعونًا» حسب الشريعة وباسمها صلب. إنّ موت المسيح على الصليب افتدى بولس وصالحه مع الله وبه تبرّر وليس بالشريعة. وبه تغيرّت كلّ قيمه كما يظهر في الرسالتين إلى الكورنتيّين ثم في الرسالة إلى أهل غلاطية وروما.

إنّ لغة الصليب تنافي حكمة الكلام: «أعلن البشارة، يقول بولس، غير متّكلٍ على حكمة الكلام لئلا يفقد موت المسيح على الصليب قوّته» (١ كو ١: ١٧). هذه الحكمة تنافي حكمة العالم. فإذا كان اليهود يطلبون المعجزات واليونانيّون يبحثون عن الحكمة «فنحن ننادي بالمسيح مصلوبًا» (١: ٢٢–٢٣). هذه القفزة الإيمانيّة دعوة للجميع. بولس يفتخر بضعفه فقد أعلن له الربّ: «نعمتي تكفيك»، «لأنّ قوّتي تكمل بالضعف» (٢ كو ١٢: ٩).

فالله الذي يختبره بولس ليس إله الشريعة التي تفصّل بين الناس وتصنّفهم بل هو الله الإله المصلوب، صديق العشّارين والخطأة، والنساء ذوات الشهرة السيئة، الرحيم نحو المساكين الذين لا شأن لهم ولا حسب ولا نسب.

هذا الإله هو الذي أعلن أنّ الأخوّة أقوى من الاستعباد، وأنّ المرأة المستضعفة مساويّة للرجل. في المسيح «ليس من إمرأةٍ ولا رجل» (غل ٣: ٢٨) بل إمرأة ورجل. و«الرجل إنّما تلده المرأة» (١ كو ١١: ١٢) ولولا المرأة لما كان التجسّد: «فلمّا تمّ الزمان، أرسل الله ابنه مولودًا من إمرأة» (غل ٤: ٤) وكلمة إمرأة تعني هنا مريم العذراء وكلّ إمرأة. هذه الهويّة المنفتحة اكتملت في حياة بولس الرسوليّة حيث يعتبر أنّ الكنيسة جماعة مؤمنين يتساوون أمام الله. يدعون بعضهم أخًا وأختًا لأنّهم أصبحوا أبناء وبنات الله وهم يشتركون بالخبز الواحد وبالكأس الواحدة في الإفخارستيّا.

أوصل الربّ بولس إلى التخلّي الكامل وإلى فهم الأمور بطريقة جديدة، طريقة المسيح. لقد فهم بولس أنّ ما كان يعدّه برًّا هو ظُلمٌ للأبرياء. فانقلبت مسيرته وذهنيته رأسًا على عقب فيقول «صرت كلاّ للكلّ لأخلّص بعضهم بكلّ وسيلة» (١ كو ٩: ٢٢).

٣) ما هو سرّ الرسالة التي حملها بولس إلى العالم؟

هي دعوةٌ من الله «فرزني» (رو ١: ١) «بمشيءته» (١ كو ١: ١؛ ٢ كو ١: ١)

«ظهرت لك لأجعل منك خادمًا لي وشاهدًا» (أع ٢٦: ١٦)

هذه الدعوة نقلها إلينا لوقا، رفيق بولس في الرسالة، وهي المرّة الأخيرة والأهم التي تعاد بها الرؤيا على طريق دمشق بلسان بولس في المحاكمة أمام الملك أغريباس. وهذه الشهادة تختصر مسيرة بولس الرسوليّة. نرجع إليها تاريخيًّا في خطبه الثلاثة إلى العالم المعروف آنذاك: إلى اليهود في المجمع في إنطاكيا بيسيدية (أع ١٣: ١٣–٤٣) وإلى الفلاسفة اليونان في الأريوباج (أع ١٧: ١٦) وإلى الكنيسة في وداعه لشيوخ أفسس (أع ٢٠: ١٧–٣٨). أمّا مفهومه الشخصيّ لرسالته فهو ينقلها إلينا بواسطة رسائله.

أ – إنّ وداع بولس لشيوخ أفسس **هو فحص ضمير رسوليّ**، في آخر محطّات حياته وهو يعمل جردة حساب عن قيامه بالرسالة. هذا الخطاب هو في سياق خطابات الوداع في الكتاب المقدّس:

بولس عاش رسالته في أفسس بأربع صفات:

– المعيّة: «معكم» و«بينكم». روحانيّة بولس هي التوحّد مع التواصل.

– «أخدم الربّ»: إنّه خادم وعبدٌ متعلّق بالمسيح ومتحرّر من الجماعة.

– «أخدم بالدموع»: درب الصليب يكتمل به: «إني أكمل في جسدي ما نقص من آلام المسيح وموته».

– و«بكلّ تواضع»: مثل العذراء: «تعظم نفسي الربّ...».

وبماذا بشرّ بولس؟ إنّه «نادى ببشارة نعمة الله» وهذا من أجمل أوصاف الإنجيل. ومَن الذي قاده في رسالته؟ الروح القدس الذي كان يوجّهه و«يحذّره من القيود والمشقات التي تنتظره». ما يشهد به بولس هو قصّة حبّه مع يسوع. هذا الحبّ يدعوه نعمة. و«كلمة هذه النعمة»، هي إنجيله استودعها بولس شيوخ أفسس وهي تتردّد في رسائله أكثر من مئة مرّة على ١٥٥ في العهد الجديد.

ب – أمّا ما يشهد به للبشارة في رسائله فيدور حول عدة محاور: موت المسيح وقيامته هو نقطة الثقل ومحور المحاور. ثم الخليقة الجديدة وقوّة الإنجيل، والانقياد الدائم لهدي الروح القدس ومفاعيله، وسنكتفي بلّبّ الموضوع في البشارة وهو سرّ الصليب والقيامة الذي اختبره بولس في رؤياه وفي حياته ورسالته.

بولس يركّز تركيزًا أساسيًّا على قيامة الربّ (١ كو ١٥: ١٤ و١٧). فيها يوجد حلٌ لمأساة الصليب وإلاّ لكان الصليب بحدّ ذاته فاجعة. وبولس يرجع إلى الكتب: «لقد قام في اليوم الثالث حسب الكتب» (١ كو ١٥: ٤) وإلى تقليد الكنيسة الأولى الذي يغرف منه ويبشّر به على طريقته، واضعًا لاهوته في خدمة الحقيقة الموحاة منذ بدء البشارة عن حدث المسيح والصليب والقيامة أي واقع الربّ معنا، عمانوئيل، وهو ينبوع الحياة.

وعندما يتكلّم بولس عن القيامة فهو لا يؤلّف بحثًا لاهوتيًّا وفلسفيًّا منهجيًّا، بل هو يجيب على أسئلة الجماعات المسيحيّة التي أسّسها وتساؤلاتهم. فرسائله كتابات ظرفية نابعة من الإيمان ومن اللاهوت المختبر المعاش. فالقيامة بالنسبة له، كما يشهد العهد الجديد، مرتبطة بالخبرة المباشرة للقائم من الموت. فالشهادة تقتضي لا أن نرى بعيوننا فقط بل أن نتلمّس بكلّ حواسنا، على نور نعمة داخليّة، حقيقة الحدث. لذلك فالظهورات هي كثيرة الأهمّيّة بالنسبة

لبولس وقد اختبرها بنفسه «فرأى الربّ» بكلّ ما هو. فالقيامة هي مختصر البشارة ومنتهى مسيرة الخلاص. هذه البشارة تتعلّق بشأن «إبنه الذي ولد في الجسد من نسل داود وفي الروح القدس ثبت أنّه ابن الله في القدرة بقيامته من بين الأموات» (رو ١: ٣–٤).

لذلك فنحن مدعوون مع الرسول أن نشترك بكلّ كياننا بهذا الحدث: «فإذا كنّا متنا مع المسيح فنحن نؤمن بأنّنا سنحيا معه» (رو ٦: ٨). هذه القيامة نحن ننتظرها ونتوق إليها بالرجاء وهي حقيقة الإيمان المسيحيّ التي يتجاذبها قطبان: القيامة العاملة فينا منذ الآن، وضرورة المشاركة في هذا السعي بالمساهمة مع كلّ الخليقة «التي تئن هي أيضًا منتظرة الخلاصّ» (رو ٨: ١٨–٢٣).

في خبرة دمشق فهم بولس أنّ المسيح مات وقام من أجلنا وبأولى حجّة من أجله هو. وذلك هو مفعول النعمة. فالصليب يُظهر حبّ الله المجّانيّ والرحيم. وهو ليس سبب عثرة وجنون، حسب غير المؤمنين، بل هو قدرة الله و«جنونه». فهو الحكمة الحقيقيّة. في الضعف والوهن يكتشف بولس صدق محبّة المسيح وفعاليتها. فقبول الصليب يتطلّب ارتدادًا ورضوخًا لضعف الصليب، لاكتشاف قدرة روح الله في حياتنا فيمكننا القول مع بولس: «أمّا أنا فلن أفاخر إلاّ بصليب ربّنا يسوع المسيح. به صار العالم مصلوبًا بالنسبة إلي، وصرت أنا مصلوبًا بالنسبة للعالم» (غل ٦: ١٤). بهذا القبول تصبح كلّ قيم العالم معكوسة ونجعل مسافةً بينها وبيننا.

٤) تجلّى الربّ لبولس فأصبح يشهد بحياته المتجلّية

التجلّي هو التحوّل الذي ابتدأ في خبرة دمشق ونضج من خلال المضادات والمحن التي تعرّض لها بولس في حياته ورسالته. يستعمل لوقا ذات التعابير في تجلّي المسيح واستنارة بولس في رؤياه. المسيح تغيّر وجهه (لو ٩: ٢٩). ويستعمل بولس الفعل ذاته في وصف تحوّله الذاتي في رسالته الثانية إلى الكورنتيّين «ونحن جميعًا نعكس صورة مجد الربّ بوجوه مكشوفة،

فنتحوّل إلى تلك الصورة ذاتها، وهي تزدادُ مجدًا على مجد، بفضل الربّ الذي هو الروح» (٢ كو ٣: ١٨) الفعل مستعمل في الحاضر، دلالة «على أنّ التحوّل والتجلّي بالروح القدس يتطوّر مع الأيّام ولا ينتهي. وبعد ألفي سنة نشعر بشخصيّة بولس تفيض بالحيويّة وتضيء بالنعمة.

أ – **هذا الإشعاع البولسيّ** نكتشفه من خلال ثلاثة **عوامل داخليّة** ومظهرين خارجيّين:

– العامل الباطنيّ الأوّل هو الفرح **الداخليّ الهادىء**. قلبي ممتلىء بالعزاء فائض فرحًا» (٢ كو ٧: ٤). وهذا الفرح ليس مزيفًا: «ما نحن إلاّ أنية من خزف تحمل هذا الكنز، ليظهر أنّ تلك القدرة الفائقة هي من الله لا منّا. نحمل في أجسادنا كلّ حين آلام موت المسيح لتظّهر حياته أيضًا في أجسادنا» (٢ كو ٤: ٧ و١٠). وهذا الفرح مشاركة للآخرين: «نحن نعمل من أجل فرحكم» (٢ كو ١: ٢٤). والأخوة هم «فرح بولس وإكليله» (فل ١: ٤).

– والعامل الباطنيّ الثاني هو **موهبة الشكران** التي يدعو الأخوة للقيام بها بفرح تجاه الآب (كول ١: ١٢). وبدء أولى رسائله إلى أهل تسالونيكي وهي على الأرجح أوّل كتابة في العهد الجديد تبدأ بالشكران كما وأغلب الرسائل البولسيّة بعدها: «عليكم النعمة والسلام. نشكر الله كلّ حين من أجلكم جميعًا».

– والعامل الباطنيّ الثالث للتجلّي هو **التسبيح**

تسابيحه العجيبة تأتي في سياق البركات اليهوديّة «تبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح باركنا في المسيح كلّ بركة روحيّة في السّماوات» (أف ١: ٣). فصلاة بولس هي صلاة تسبيح وشفاعة، بالتسبيح يعطي بولس معنىً روحيًّا لكلّ أوقاته المظلّمة: «تبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح، الآب الرحيم وإله كلّ عزاء، فهو يعزينا في جميع شدائدنا لنقدر نحن، بالعزاء الذي نلناه من الله، أن نعزّي سوانا في كلّ شدة» (٢ كو ١: ٣–٤).

ب – أمّا **المظاهر الخارجيّة** لتجلّي بولس فهي اثنان:

– **المظهر الأوّل هو الثبات** العجيب الذي لا يني.

في أوّل يوم بعد ارتداده يضطر إلى الهرب من دمشق. يذهب إلى أورشليم فيهرّبونه إلى طرسوس وبقي فيها حتّى استدعاه برنابا إلى إنطاكية بعد إحدى عشرة سنة. ومنها ينطلق، ناسيًا كلّ إخفاقاته. في رحلاته الرسوليّة، كلّ محطة هي ورشة جديدة. يبشّر في إنطاكية بيسيدية فيطردونه، يكمل نحو إيقونية. بمساعدة التلاميذ، يقف ويعود إلى المدينة. في الغد يذهب برنابا إلى دَربه، وبعد تبشير هذه المدينة وتلمذة عدد كبير منها، رجعا في طريق المجيء ذاتها (أع ١٤). في أثينا يهزأ به الفلاسفة ويذهب إلى كورنتس وهو خائف.

هذا الثبات هو غير ممكن من دون المحبّة التي وصفها أنّها «لا تزول أبدًا» (١ كو ١٣: ٨). «فالله قد سكب محبّته في قلوبنا بالروح القدس الذي وهبه لنا» (رو ٥: ٥). بهذه المحبّة يردّد بولس: «إنّنا نفتخر حتّى في الشدائد لعلمنا أنّ الشدّة تلد الصبر. والصبر امتحان لنا، والامتحان يلد الرجاء ورجاؤنا لا يخيب» (رو ٥: ٢–٥). قالها بولس بعد عشرين سنة من المصاعب لا في بداياته الحماسيّة. إنّ تجلّي بولس هو قوّة القائم من الموت الذي يمتلك ضعفه ويعيش فيه.

– أمّا **المظهر الثاني فهو حرّيّة الروح**. بولس تحرّر من الضغط ومن التبعيّة القديمة. تدفعه النعمة التي تسكن فيه. فينطلق إلى مغامرات لا يتجرأ غيره على خوضها. فهو يجاهر بتمنعه عن ختانة تيطس ولو كان ذلك عن فطنة لإرضاء المسيحيّين المتهوّدين: «ما استسلمنا لهم ولو لحظة، حتّى نحافظ على صحّة الإنجيل كما عرفتموه». بقوّة داخليّة شخصيّة يأخذ بولس مسافته بحرّيّة مطلقة، تجاه الرأي العامّ والمحيط المقاوم له. فيعترض حتّى على بطرس في أقصى حدٍّ ممكن، عندما توقف عن مؤاكلة غير اليهود خوفًا من دعاة الختان. «وجاراه سائر اليهود في ريائه، حتّى إنّ برنابا نفسه انقاد إلى ريائهم». بولس لا

يساوم حتّى ولو كان ما يدعوه «رياء» قد يكون في سبيل المصالحة والوساطة. هذه الحرّيّة ليست اعتدادًا بالنفس بل انتماء كامل مُطلق للربّ يسوع. كعبد له وخادم. في هذا المنظار تصبح الحرّيّة شرطًا صارمًا للخدمة الكاملة. «فالمسيح حرّرنا لنكون أحرارًا، فاثبتوا، إذًا، ولا تعودوا إلى نير العبوديّة. فأنّا بولس أقول لكم: «إذا اختتنتم فلا يفيدكم المسيح شيءًا. «ففي المسيح يسوع لا الختان ولا عدمه ينفع شيءًا بل الإيمان العامل بالمحبّة». فأنّتم، يا إخوتي، دعاكم الله لتكونوا أحرارًا، ولكن لا تجعلوا هذه الحرّيّة حجّة لإرضاء شهوات الجسد، بل اخدموا بعضكم بعضًا بالمحبّة» (غل ٥: ١–١٣). هذه الحرّيّة هي نبع الخدمة الأكثر ضعةً، وفيه يتجذّر وصف بولس لرسالته التي يؤديها «بكلّ تواضع». فعلينا أن نراجع قراءة هذه النصوص، والتأمّل فيها، ونجعلها تحركنا بكلّ كثافة غناها، لأنّها كلمات الوحيّ الإلهيّ.

في عمق ذاته يقول لنا بولس: إنّ الحلول الوسط لا تكفي عندما يحترّق كلّ شيء حوالينا. إنّه اختبر إله الرحمة، يأتي إلينا في ضعفنا دون أي استحقاق منا. لإنّه إله الموت والقيامة.

شُغف بولس بالمسيح، «أحبّه حتّى النهاية» حتّى حدود الجنون فتخلّى من أجله عن كلّ شيء وتخطّى المحوريّة الذاتية في «أعمال الجسد» وانفتح على الآخرين بغيرة الرسالة والأخوّة الشاملة. يشهد بذلك «نشيد المحبّة» (١ كو ١٣) و«ثمر الروح» (غل ٥) وهي تؤسّس لشرعة التطويبات في الإنجيل (مت ٥).

لبولس فضل في استقلاليّة المسيحيّة وفي تأسّيس شبكة من الجماعات المسيحيّة تغطّي نصف الأمبراطوريّة الرومانيّة. وله فضل في الإرث اللاهوتيّ الذي تركه للكنيسة حول مفهوم الفداء والتبرير والحرّيّة والضمير والغيرة الرسوليّة. عنه يقول يوحنّا فمّ الذهب: «قلب بولس، قلب يسوع». ويقول متّى المسكين: «تأتي معارف بولس اللاهوتيّة ...كسيل من التأمّلات الهادئة، تخترق اللبّ قبل أن تستقر في الفكر، لتزلزل النفس، وتعيدها صاغرةً إلى مواطن نعمتها الأولى».

بولس والد بالنعمة كما هو يفصح عن ذاته: «يا أبنائي الذين أتوجّع بهم مرّة أخرى في مثل وجع الولادة حتّى تتكوّن فيهم صورة المسيح» (غل ٤: ١٩). ويجعل تلامذته على مثاله أولادًا ووالدين للكلمة.

فطوبى لبولس الذي شُغف بالمسيح فتمزّقت حياته بهذا الشغف بل صُلبت. إنّه إيقونة المعلم.

Bibliographie

BASLEZ Marie-Françoise, *Saint Paul*, Fayard, 2008.

BECKER Jürgen, *Paul, l'apôtre des nations*, Cerf, 1995.

Biblia, n° 38-47.

Collectif, *Paul, une théologie en construction*, Le Monde de la Bible, n°51, Labor et fides, 2004.

Collectif, *Relecture des Actes des Apôtres*, Cahiers Évangile, n° 128, Cerf, 2004.

DUMOULIN Pierre, *Sois mon témoin*, Pneumathèque, 1996.

MARGUERAT Daniel, « L'image de Paul dans les Actes des Apôtres », *Les Actes des Apôtres*, XX^e Congrès de l'ACFEB, Angers, 2003, Cerf, Lectio Divina, p. 121-154.

MARGUERAT Daniel, *Paul de Tarse*, éd. du Moulin, 1999.

MARTINI C. M., *Saint Paul, face à lui-même*, Médiaspaul, 1984.

QUESNEL Michel, *Saint Paul*, Desclée de Brouwer, 2008.